الأخلاق من وجهة نظر إسلامية

عبد الرحمن السالمي *

تذكر في القرآن الكريم عدة مسائل أخلاقية (فضائل أو رذائل) طابع سلوكي وبثلاث وسائل: بطريقة الاستنكار والإدانة، وفرض عقوبات عليها مثل القتل والسرقة والزنا، وتكوين عصابات مسلحة تقطع الطريق وتهديد الناس، وذكر الناس بالباطل أو التشكيك في أنسابهم وفي سمعة آبائهم وأمهاتهم، والطريقة الثانية وهي ذات طابع تربوي بالقول أو التقدير إنه هذه الصفة أو تلك ليست من أخلاق المؤمنين ففي عدة آيات قرآنية يرد أن المؤمن لا- يسرق أو لا- يزني أو لا- يقتل أو لا- يخون أو لا يكذب أو لا يمارس استغلال حاجة الناس من طريق الربا، والطريقة الثالثة ذكر فضائل إنسانية عامة مثل العدل والشورى والسلوك المعتدل في الإنفاق والإحسان إلى المحتاجين، والوداعة في التعامل معهم حتى لو أساءوا، ويعدّ القرآن هذه الفضائل الأخلاقية أموراً عسيرة على النفس لأنها تخالف هوى الإنسان وأنانياته الفردية، ولذلك فإن النفوس الكبيرة والقوية فقط هي التي تستطيع القيام بها.

ويعتبر المسلمون حياة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- وتصرفاته وأقواله إيضاحاً وتنفيذاً لفضائل السلوك والأعمال وهم يسمون مجموع المظاهر السلوكية هذه سنَّة، أي طريقة خيرية بالاتباع ولبعض تلك الفضائل صفة تشريعية أي أنها تملك خصائص قانونية بالأمر أو بالنبي، وبذلك تصبح مثل النوع الأول من الأنواع الثلاثة التي ذكرناها لكنها في الأكثر مثل النوعين الثاني والثالث، أي أنها نصائح ووصايا لا تترتب عليها عقوبات دنيوية، بل هي فضائل أخلاقية إذا أنفذها الإنسان (رغم صعوبتها) فلها ثواب عند الله في الآخرة، وثوابها في الدنيا رضى النفس وحسن العلاقات بالآخرين من المسلمين وغير المسلمين، وهكذا فهناك مصدران للأخلاق الفردية والعامة: القرآن الكريم، وسنة النبي، وبعض هذه الأخلاق سلوكية، وبعضها الآخر معنوي واعتباري وبالذات تلك التي لا تترتب عليها عقوبات أو ليست مكشوفة للناس، وتعتمد على الاختيار الشخصي.

إن هذه التفرقة بين السلوكيات والمعنويات أو الاعتبارات لا تقوم على ظهورها للناس أو عدم ظهورها فقط، بل تعتمد على (النية) أو على المقصد الشخصي من وراء القيام بأي عمل أو تركه ففي كلام مشهور للنبي محمد يردده المسلمون كثيراً في العادة: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) فعندما اشتد اضطهاد القرشيين بمكة للنبي محمد طلب من أتباعه ومن أراد الانضمام للإسلام الهجرة إلى يثرب التي سماها فيما بعد: المدينة المنورة، وقد هاجر للمدينة عبر سنتين بين 620 و622 آلاف من الناس وما كانت دوافعهم واحدة أو متقاربة فجاء الحديث النبوي السالف الذكر لينبه إلى أن النية الشخصية

من وراء الهجرة هي التي تحدد عند الله (وليس عند الناس) ماهية هذا العمل وهل هو فضيلة أم أنه عمل عادي دنيوي المقصود به الفائدة الشخصية، ولأن كلام النبي تشريعي وعام أو قاعدة في الأغلب الأعم فقد صارت النية التي يسأل عنها أمام الله هي جوهر قيام الأعمال والأفكار على الاختيار الفردي والخاص وقد ترتب على ذلك أمران في التراث الإسلامي: مهمة الإنسان في هذا العام، ومفهوم الخير والشر.

على ماذا يقوم تحديد الخير أو الفضيلة، والشر أو الرذيلة؛ هل يعتمد على النص في القرآن أو السنة، أو على النية والمقصد؟ فاللاهوتيون -الذين يعتبرون أن الدين قائم على النصوص المقدسة- ذهبوا إلى أن الفضائل والرذائل تتحدد بالنصوص والذين اعتبروا أن الأعمال والأفكار تقوم على النية اعتبروا أن العقل أي الاختيار الحر والشخصي، هو المصدر الثالث لتحديد الخير والشر، فحتى لو كان هذا الفعل أو ذاك مذكوراً في القرآن وكانت دوافع الإنسان المسلم للقيام به غير صافية بل بسبب الخوف من الناس أو اتباعاً للجمهور؛ فإن الخيرية في هذا التصرف تكون محدودة وأحياناً منعدمة، ثم إنه من المسلّم به أن القرآن الكريم، لم يذكر كل الفضائل ولم ينه عن كل الرذائل ولهذا فما دامت البشرية مستمرة فإن الأعمال الإنسانية تعتمد على الاختيار الحر والمتجدد بالعقل الملتزم والمسؤول، والمستند إلى ثلاثة أسس: حرية الإنسان، والالتزام بعدم الإصغاء للهوى، هوى النفس والعشيرة والناس، وقصد الخير للنبي والإنسان، وسلامة التصرف معهم.

استناداً إلى هذا الفهم أو هذه الرؤية ظهرت فكرة الاحتساب، وفكرة التكليف، فالإنسان البالغ العاقل بمقتضى حريته وبمقتضى عقله، مستخلف في هذا العالم من أجل إعماره، والإسهام في الحياة البشرية بالطرائق التي تتوافق مع عمليات الإعمار، والعيش المشترك، ويرتبط برؤية الاستخلاف التكليف الإلهي بذلك، ودعم الله -عز وجل- للإنسان في هذا الاستخلاف والتكليف بإرسال الرسل، وإنزال الشرائع التي يدركها الإنسان بعقله ويعمل بمقتضى العقل على إنفاذ التكليف المؤدي إلى خير البشرية، ومن ضمنها هو فرداً وجماعة، ولذلك فهناك عقد مجازي بين الله والبشر على إعمار العالم، وعقد حقيقي بين الله والمؤمنين برسالاته وشرائعه على السير في تلك العملية الزاخرة والقوية بالالتزام على مستويين: مستوى العلاقة بين الله والمؤمنين المكلفين، وعلى مستوى علاقات البشر بين بعضهم البعض: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(سورة الحجرات: آية 9) المستوى الأول للعقد مع الله هو ما يسميه العلماء المسلمون، الاحتساب (calling) أو بحسب Berufung: Max Weber فالمؤمن الملتزم بفعل الخير المحدد بالشرع وبالعقل لالتزامه مع الله، أي من أجل الخير بحد ذاته، ولا يرجو ثواباً على ذلك من غير الله –عز وجل-، لكن من نتائج هذا العقد على المستوى الثاني، مستوى علاقة البشر ببعضهم بعضاً: التعارف أي العلاقات الحسنة والحميمة بين الناس بمقتضى الإنسانية المشتركة، وبمقتضى المصالح المشتركة، واستناداً إلى النية الحسنة، والتكليف يصبح العمل الإنساني تنافساً في فعل الخير وسيراً فيه: (فاستبقوا الخيرات) كما يقول القرآن الكريم وبذلك تتصارع في نفوس الأفراد ثلاث

قوى يسميها الصوفية المسلمون -بحسب القرآن- نفوساً: النفس الأمارة بالسوء والتي تدفع باتجاه الهوى والتساهل والإهمال أو فعل الشر، والنفس اللوامة التي تنقد هذه النزعات الشديدة أو المتساهلة وتدفع باتجاه الخير وصولاً للتسامي الفردي، والخير الجماعي والشامل.

وهذا الخير الأخلاقي الشامل هو ما تستهدفه الشريعة الإسلامية في نظر اللاهوتيين والفقهاء المسلمين، بل إن الشاطبي -الفقيه الملكي من القرن الرابع عشر- يذهب إلى أن كل الشرائع، وليس الشريعة الإسلامية وحدها إنما تريد صون مصالح ضرورية لبقاء الحياة الإنسانية ويحدد الفقهاء المسلمون تلك المصالح بأنها خمس: حق الحياة، وحق العقل، وحق الدين، وحق النسل، وحق الملك، ورغم أن سائر هذه المصالح والحقوق ضرورية لكنها في حال التصارع أو التضاد؛ فإن حق الحياة يتقدم على حق العقل والدين، وحق النسل يتقدم على حق الملك.. إلخ، والفلسفة الكامنة وراء ذلك هي فلسفة أخلاقية رفيعة تعتبر الحياة البشرية مقدسة بكل المعاني.

ما أردت إيجازه في هذا السرد هو إيضاح الأبعاد الأخلاقية الفردية والجماعية للشريعة الإسلامية، كما استقرت في النصوص المقدسة، وفي النتاجات الفكرية للعلماء المسلمين في العصور الكلاسيكية، ولا شك أن الأوضاع الحاضرة للمسلمين ليست المجال الأصلح للحكم على الجوانب العقدية والأخلاقية للإسلام وشريعته وتقاليده الدينية والثقافية والاجتماعية، ويتحمل المسلمون مسؤولية كبرى لغياب هذه المعاني والتقاليد من علاقاتهم فيما بينهم ومع العالم فهناك تجربة سلبية بين الدين والدولة في العالم الإسلامي وهناك تجربة سلبية أيضاً لعلاقاتهم مع العالم، لكن -المسلمين شأنهم في ذلك شأن سائر البشر- يريدون التعارف والعدالة والسلام والاستقرار ويعتبرون -وبخاصة الشباب المتحمسون دينياً أو وطنياً- أن الأوضاع الدولية السائدة لا تتلاءم ومصالحهم، فيثورون عليها بأشكال وطرائق سلبية وتنشأ من وراء ذلك أفكار وانطباعات سلبية لدى كثير من الناس، عنهم وعن دينهم ومجتمعاتهم، والأصولية الإسلامية إحدى ظواهر التمرد على الأوضاع الحاضرة لدى المسلمين داخلياً وفي العالم، وهي ظواهر يبرز فيها العنف الذي لا يتلاءم وتعاليم الإسلام، وبخاصة ضد المدنيين وغير المقاتلين أو المعتدين، فالإسلام -بحسب النص القرآني- يقر مبدأ الدفاع عن النفس ضد الاعتداء وهذا هو الجهاد كما نص عليه القرآن، لكن الذي ينظم عمليات الدفاع أو الجهاد ضد العدوان هو الدولة، وليس الأفراد أو الجهات الخاصة، وهذا ما يقوله الفقهاء المسلمون القدامى والمحدثون، ويقول المتطرفون الإسلاميون إنهم إنما يقومون بأعمال العنف بأنفسهم لأن الدول عاجزة عن القيام بذلك. بيد أن تلك ليست حجة مقنعة لأن العنف الأصولي ما أدى إلى حفظ الحقوق والسيادة؛ بل زاد أوضاع العرب والمسلمين سوءًا، وهكذا فإن قيام النظام الدولي بحل المشكلات المتفاقمة لدى العرب والمسلمين مثل القضية الفلسطينية، والقضية العراقية، وقضية كشمير أو الشيشان.. إلخ؛ كل ذلك كفيل بأن يعيد العلاقة السوية بين المسلمين والعالم، وكفيل بأن يعيد للأمور طابعها الأخلاقي التبادلي أو طابع التعارف الذي يؤكد عليه القرآن.

هنـاك مشـكلة أخلاقيـة كـبرى في هـذه العولمـة الطاغيـة الـتي تجعـل بمظـاهر وظواهر الاسـتغلال والظلم والعنف المسـتمر والظـاهر، ولا حلّ إلا بالتعاون والتواصل والانتصارٍ لأخلاقيات العدالة والسـلام وإنسانية الإنسان التي نشتاق نحن المسلمين للمشاركة فيها تبعاً لتعاليم ديننا، وتقاليد أمتنا، ويبقى أن الشر لا يبرر الشر، والعنف لا يبرر العنف لكن الآلام الهائلـة الـتي يتعرض لهـا الضـعفاء في هـذا العـالم غير مبررة أيضـاً وسواءً أكـان هؤلاء الضعفاء مسلمين أو غير مسلمين.

****

*) رئيس تحرير المجلة.